مصرع التصوّف[1]

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحق؛ ليظهره علىٰ الدين كله، والصلاة والسلام علىٰ عبد الله ورسوله محمد خاتم النبيين، وسيد ولد آدم أجمعين؛ وبعد:

فإنه كانت لي بالتصوف صلة، هي صلة العبرة بالمأساة، فهنالك حيث كان يدرج بي الصِّبا في مدارجه السِّحْرِيَّة، وتستقبل النفسُ كلَّ صُروفِ الأقدار بالفرحة الطروب، وتستنشئ الروح رَيَّا الجمال والحب من كل معاني الحياة، هنالك تحت شُغُوف الأسحار الْوَرْدِيَّةِ من ليالي القرية الْوَادعة الحالمة، وفي هيكل عَبِقٍ بغيوم البخور جَثَمَ علىٰ صدره صنمٌ صغير يعبده كثير من شيوخ القرية، هنالك في مطاف هذه الذكريات الْوَلْهىٰ كان يجلس الصبي بين شيوخ تَغَضَّنَتْ منهم الجباه، وتهدَّلت الجفون، ومشىٰ الهرم في أيديهم خفقات حزينةً راعشة، وفي أجسادهم الهضيمة نحولًا ذابلًا، يَتَرَاءَوْنَ تحت وَصْوَصَة السراجِ الخافت أوهامَ رجاءٍ ضَيَّعَتْهُ الخيبةُ، وبقايا آمالٍ عصف بها اليأس.

وتَتَهدَّح ترانيمُ الشيوخ تحت السَّحَر نوَّاحًا، بينها صوت الصبي بالتراتيل الوثنية، وما زال يذكر الصبي أن صلوات ابن بشيش، ومنظومة الدردير كانتا أحب التراتيل إلىٰ أولئك الشيوخ، وما زال يذكر أن أصوات الشيوخ كانت تشرق بالدموع، وتئن فيها الآهات حين كانوا ينطقون من الأولىٰ: (اللهم انشلني من

---

(١) (٣/ ١٣٧٢هـ).

أوحال التوحيد!!) ومن الثانية: (وجُدْ لِي بِجَمْع الجمع منك تفضلا). يا للصبي الغرير التعس المسكين!! فما كان يدري أنه بهذه الصلوات يطلب أن يكون هو الله: هُوِيَّةً وماهِيَّةً وذاتًا وصفة!!

ما كان يدري ما التوحيد الذي يضرع إلىٰ الله أن ينشله من أوحاله!!

ولا ما جمع الجمع الذي يبتهل إلىٰ الله أن يمن به عليه!!

ويشب الصبي، فيذهب إلىٰ طنطا ليتعلم، وليتفَقَّه في الدين، وثَمَّت يسمع الكبار من شيوخه يقسمون له، ولأصحابه أن البدوي قطب الأقطاب، يُصَرِّف من شئون الكون، ويدير من أقداره وغيوبه الخفية.

ويجرؤ الشاب مرة، فيسأل خائفًا مرتعدًا: وماذا يفعل الله؟!

ويهدر الشيخ غضبًا، ويزمجر حنقًا، فيلوذ الشاب بالرعب الصامت، وقد استشعر من سؤاله، وغضب الشيخ، أنه لَطَّخ يديه بجريمة لم تكتب لها مغفرة!! ولم لا؟

والشيخ هذا كبير جليل الشأن والخطر، وما كان يستطيع الشاب أبدًا أن يفهم أن مثل هذا الْحَبْرِ الأشيب الذي يسائل عنه الموت يرضىٰ بالكفر، أو يَتَوهك مع الضلال والكذب، فصدق الشابُّ شَيْخَه، وكذَّب ما كان يتلو قبلُ من آيات الله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يونس: ٣]!!

ثم يقرأ الشاب في الكتب التي يدرسها أن فلانًا غسلته الملائكة، وأن فلانًا كان يصلي كل أوقاته في الكعبة في حين يسكن جبل قاف، أو جزائر وواق الواق!!!

وأن رسول الله ﷺ مد يده من القبر وسلم علىٰ الرفاعي، وأن فلانًا عذبته الملائكة؛ لأنه حفظ القرآن والسنة وعمل بما فيهما، ولكنه لم يحفظ كتاب الجوهرة في التوحيد!!

وأن مذهبنا في الفقه هو الحق وحده؛ لأنه أحاديث حذفت أسانيدها!!!

ويصدق الشاب بكل هذا ويؤمن، وما كان يمكن إلا أن يفعل هذا. إذ قال في نفسه: لو لم تكن هذه الكتب حقًّا ما درست في الأزهر، ولا درسها هؤلاء الهرمون من الأحبار، ولا أخرجتها المطبعة!!

وهل كان يمكن أن يسأل نفسه مثلًا مثل هذا السؤال، وأين من الحق الْبَيِّن من كتاب الله، هذا الباطلُ العِرْبيد في هذه الكتب؟!

لا، فلقد جيء به إلىٰ طنطا ليتفقه في الدين، وها هو فقه الدين يسمعه من الشيوخ، ويقرؤه في الكتب، وحسبه هذا!!

وتموج طنطا بالوفود، وتعج بالآمِّين بيت الطاغوت الأكبر من كل حَدَب، ويجلس الشاب في حلقة يذكر فيها الصوفية اسم الله بِخَنَّاتِ الأنوف، ورجَّات الأرداف، ووثنية الدفوف، وثَمَّتَ يسمع منشد القوم يصيح راقصًا: (ولي صنمٌ في الدير أعبد ذاته)، فتتعالىٰ أصوات الدراويش طروبة الصيحات: (إيْوَهْ كِدَه اكْفَر، اكْفَر يا مربي)، ويرىٰ الشابُّ علىٰ وجوه القوم فرحًا وثنيًّا راقص الإثم بما سمعوا من المنشد الكافر، فيسأل شيخًا ممن وفدوا من أهل قريته: يا سيدي الشيخ، ما ذلك الصنم المعبود؟!

فيزم الشيخ شفتيه، ثم يجود علىٰ الشاب الوالِه الحيرة بقوله: (إنْتَ لِسَّهْ صُغَيَّر)!!

ويسكت الشاب قليلًا، ولكن الكفر يضج في النعيق، فيسمع المنشد يقيء: (سلكت طريق الدير في الأبَدِيَّة)، (وما الكلب والخنزير إلا إلهنا)، ويطوي الشاب نفسه علىٰ فَزَع وعجب يسائل الذهول: ما الكلب؟ ما الخنزير؟ ما الدير؟! وأنىٰ للذهول بأن يجيب؟!

ولقد خشي أن يسأل أحد الشيوخ، ما دام قد قيل له: (إنْتَ لِسَّه صُغَيَّر)، ثم إنه رأىٰ بعض شيوخه الكبار يطوفون بهذه الْحَمْآت يشربون «القرفة» ويهنئون الأبدال والأنجاب والأوتاد بمولد القطب الْغَوْث سيدهم السيد!!!

وتُكَفِّن دورات الفلَك من عمر الشاب سنوات، فيصبح طالبًا في كلية أصول الدين، فيدرس أوسع كتب التوحيد - هكذا تُسَمَّىٰ -، فيعي منها كل شيء إلا حقيقة التوحيد، بل ما زادته دراستها إلا قلقًا حزينًا، وحيرة مسكينة، ويجلس الشاب ذات يوم هو وصديق من أصدقائه مع شيخ صُوفِيٍّ أُمِّيٍّ، فيسألهما عن معاني بعض حكم ابن عطاء الله السكندري: (إرادتك التجريدَ مع إقامة الله إياك في الأسباب من الشهوة الخفية، وأخذك في الأسباب مع إقامة الله إياك في التجريد انحطاط عن الْهِمَّةِ العلية).

ويحار الطالبان، ولا يدريان بم يجيبان هذا الأمي عن هذه الحكم المزعومة - وقد عرفا بعدُ أنها تهدف إلىٰ تقرير أسطورة رفع التكليف - فتمتلئ نفساهما بالغم المهموم، إذ رسبا في امتحان عقده لهما أمي صوفي!!.

ويدور الزمن، فيصبح الشاب طالبًا في شعبة التوحيد والفلسفة ويدرس فيها التصوف، ويقرأ في كتاب صنفه أستاذ من أساتذته رأي ابن تيمية في ابن عربي، فتسكن نفس الشاب قليلًا إلىٰ ابن تيمية، وكان قبل يراه ضالًّا مُضِلًا كما نعته الدردير!!

وكانت عنده لابن تيمية كتب، بيد أنه كان يرهب مطالعتها خشية أن يرتاب في الأولياء، كما قال له بعض شيوخه من قبل!!

وخشية أن يضل ضلال ابن تيمية... ويقرأ الشاب؛ ويستغرق في القراءة،

ويتدبر ما يقرأ، وثَمَّتَ رُوَيْدًا رُوَيْدًا ترتفع الغشاوة عن عينيه فيبهره النور السماوي، وعلىٰ أشعته الهادية يرىٰ الحقائق ويبصر القيم، يرىٰ النور نورًا، والإيمان إيمانًا، والحق حقًّا، والضلال ضلالًا، وكان قبل - بسحر التصوف - يرىٰ في الشيء عين نقيضه؛ فيؤمن بالشرك توحيدًا، وبالكفر إيمانًا، وبالمادية الصماء من الوثنية روحانية عليا.

ويدرك الشاب - وهو لا يكاد يصدق - أن التصوف دين الوثنية والمجوسية، دين ينسب الربوبية والإلهية إلىٰ كل زنديق، وكل مجرم، وكل جريمة!!

دين يرىٰ في إبليس وفرعون وعجل السامري وأوثان الجاهلية، يرىٰ في كل هؤلاء الذين لعنتهم كتب الله، بل لعنتهم حتىٰ العقول، يرىٰ فيهم أربابًا وآلهة تهيمن علىٰ القدر في أزله وأبده، دين يرىٰ في كل شيء إلهًا يجب أن يُعْبد، وربًّا يخلق ما يشاء ويختار، دين يقرر أن حقيقة التوحيد فيه هي الإيمان بأن الله سبحانه عين كل شيء، دين لا تجد فيه فيصلًا بين القيم ولا بين حقائق الأشياء، ولا بين الضد والنقيض، وبين ضده ونقيضه، دين يقول عن الجيف يتأذىٰ منها النتن، وعن الميكروبات تفتك سمومها بالبشرية، إنها هي الله سبحانه!! عن القاتل، عن السارق، عن الباغي، عن كل وغد تسفل في دناءته، عن كل طاغية بغىٰ في تجبره، يقول عن كل هؤلاء أنهم تعينات الذات الإلهية!!

فأي إله هذا الذي يقتل، ويبغي، ويفسد في الأرض؟

أي إله هذا الذي يدب تحت جنح الليل تتلظىٰ في عينيه، وعلىٰ يديه الإثم والجريمة الضارية؟

أي إله هذا الذي يلعق دم الضحايا يبرد به غلته، ويخضب بدم الأعراض التي

سفحتها يديه الظالمتين؟

أي إله هذا الذي مشىٰ في أيام التاريخ ولياليه بطشًا وظلمًا وجبروتًا، يدمر ويخرب، ويصنع القصة الأولىٰ لكل خريمة خاتلة؟!

ومن يكون إلا إله الصوفية الذي ابتدع أسطورته ابن عربي، وابن الفارض وغيرهما!!؟

أيتها البشرية التي تهاب القانون، أو ترهب السماء!!

ها هو دين التصوف يناديك ملحًّا ملهوف النداء أن تنحدري معه إلىٰ حيث تنزعين من كل خمرة مخمورة، وتتلطخين بكل فسق، وتتمرغين في أوحال الإثم، وأنتم أيها العاكفون في المساجد، لا حاجة بكم إلىٰ الصلاة والصوم والحج والزكاة، بل لا حاجة بكم إلىٰ رب تحبونه وتخافونه، وترجونه، ولا إلىٰ إله تعبدونه.

لم هذا الكدح والجهاد والنصب والعبودية؟

لم هذا وكل فرد منكم في حقيقته هو الرب، وهو الإله كما يزعم الصوفية!!؟

ألا فأطلقوا غرائزكم الحبيسة، ودعوها تعيش في الغاب والدغل وحوشًا ضارية، وأفاعي فتّاكة.

وأنتم يا بني الشرق! دعوا المستعمر الغاصب يسومكم الخسف والهوان، ويلطخ شرفكم بالضعة، وعزتكم بالذل المهين، ويهيمن علىٰ مصائركم بما يهوىٰ بطشه الباغي، وبغيه الظلوم.

دعوه يهتك ما تحمون من أعراض، ويدمر ما تشيدون من معال، وينسف كل ما أسستم من أمجاد، ثم الثموا ضارعين خناجره وهي تمزق منكم الحشاشات، واهتفوا لسياطه، وهي تشوي منكم - أَذِلَّاء - الجلود، فما ذلك المستعمر عند

الصوفية سوىٰ الله تعين في صورة مستعمر.

دعوا المواخير مفتحة الأبواب ممهدة الفجاج، ومباءات البغاء تفتح ذراعيها الملهوفتين لكل شريد من ذئاب البشر، وحانات الخمور تطغىٰ علىٰ قدسية المساجد، وأقيموا ذهبي الهياكل للأصنام، وارفعوا فوق الذرىٰ منتن الجيف، ثم خروا ساجدين لها، مسبحين باسم ابن عربي، فقد أباح لكم أن تعبدوا الجيفة وأن تتوسلوا إلىٰ عبادتها بالجريمة!!

ذلكم هو دين التصوف في وسائله وغاياته، وتلك هي روحانيته العليا!!

ألا فاسمعوها غير هيابة ولا وجلة، واصغوا إلىٰ هتاف الحق يهدر بالحق من أعماق الروح: إن التصوف أدنأ وألأم كيد ابتدعه الشيطان، ليسخر معه المسلمين في حربه لله ولرسوله، إنه قناع المجوسي يتراءىٰ بأنه رباني، بل قناع كل عدو دنيء العداوة للدين الحق.

فتش فيه تجد برهمية، وبوذية، وزرادشتية، ومانوية، وديصانية، تجد أفلوطينية، وغنوصية، تجد فيه يهودية ونصرانية، ووثنية جاهلية، تجد فيه كل ما ابتدعه الشيطان من كفر، منذ وقف في جرأة صوفية يتحدىٰ الله، ويقسم بعزته أنه الذي سيضل غير المخلصين من عباده، تجد فيه كل هذا الكفر الشيطاني، وقد جعل منه الشيطان كفرًا جديدًا مكحول الإثم، متبرج الغواية، مُتَقَتِّل الفتون.

ثم سماه للمسلمين: «تصوف» وزعم لهم - وأيده في زعمه الكبار الملتحون من الأحبار والرهبان - أنه يمثل أقدس المظاهر الروحية العليا في الإسلام.

أقولها عن بينة من كتاب الله وسنة خير المرسلين صلوات الله وسلامه عليه، وبعون من الله سأظل أقولها، لعلي أُعين الفريسة التعسة علىٰ أن تنجو من أنياب

هذا الوحش الملثم بوشاح الدعة الحانية العطوف، ولكن سلوا الصوفية سودًا وبيضًا، وخضرًا وحمرًا، سلوهم: ما ردكم علىٰ هذا الصوت الهادر من أعماق الحق؟

سيقولون ما قالت وثنية عاد: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَىٰكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٤]، وآلهتهم هي قباب أضرحة الموتىٰ وأعتابها.

دمغناهم بالحق فراحوا يعوون عواء اللص الحذر وقع في قبضة الحارس، وجأروا بالشكوىٰ الذليلة إلىٰ النيابة فلم تر النيابة فيمن يمسك بالمجرم مجرمًا، وشكوا إلىٰ رئيس حكومة سابق، وختموا الشكاة بهذه الضراعة الذليلة: (والله نسأل لمقامكم الرفيع الخير والسداد في ظل حامي الدين حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم صان الله عرشه، وأيد حكومته الرشيدة، وألهمها التوفيق)[1].

فلم ير الرئيس السابق فيمن يثرم أنياب الرقطاء مجرمًا، وطاح الحق ببغي إلههم وملاذهم حامي دينهم كما كانوا يلقبونه.

وما زلنا - بعون من الله نستلهمه - بكتاب الله نتحداهم، وبسنة رسوله ﷺ نحاججهم، والله علىٰ كل شيء شهيد.

سيقول الناعمون من ذوي الألسنة التي استمرأت كلمات الذل والعبودية، وليونة النفاق وممن يتملقون الجماهير علىٰ حساب الحق، ويزعمون أنهم لا يحبون إثارة شقاق أو جدال، ولا الطعن علىٰ أحد، سيقول هؤلاء: ما هكذا يكون النقد، ولا هكذا يكون البحث العلمي!

---

(١) قدموا هذه الشكوىٰ بتاريخ ٤ أغسطس سنة ١٩٥١.

لا، أيها المدللون الخانعون للأساطير، فإنا لسنا أمام جماعة مسلمة، فنخشىٰ إثارة الشقاق بينهم، ولو خشي الرسول مثل هذا لَمَالَأَ قريشًا علىٰ حساب الحق، ولكنه ﷺ أطاع أمر ربه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر: ٩٤]، ووعىٰ قلبه المشرق المؤمن الطهور التقي نصيحة ربه فيما قال له العلي الكبير: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٥]، فكان سيد ما يستغفر به الرسول الكريم الأمين ربه: «**اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا علىٰ عهدك ووعدك ما استطعت**»[1]، فكيف بنا نحن الذين أمرنا أن نجعل الرسول وحده لنا الأسوة؟! ولسنا كذلك أمام فئة تحترم العقل، بل تزدريه وتحقره، ثم تهب في قحة طاغية الجراءة لتشتم الله، وتذود عن إبليس وفرعون وعباد العجل والوثن، داعية المسلمين إلىٰ اتخاذ هؤلاء أربابًا وآلهة، وسيرد علىٰ القارئ عشرات النصوص من فصوص ابن عربي، وتائية ابن الفارض شهيدة عليهم بما ذكرت، وابن عربي وابن الفارض قطبا التصوف، وإماما الصوفية المعاصرة، فكيف يعاب علينا أننا ندافع عن دين الله، وأنا نقول للشيطان: إنك أنت الشيطان؟!

ماذا نقول عن رجل - وهو ابن عربي - يفتري أدنأ البهتان علىٰ الله، فيصوره بصورة رجل وامرأة يقترفان الإثم، مؤكدًا لأتباعه أن الجسدين هما في الحقيقة ذات الله سبحانه؟! وسبحان رب العزة عما يصف الآثم.

---

(١) سبق تخريجه.

فهل نلام إذا هتكنا القناع عن وجه هذا الرجل؛ ليبصره المخدوعون به، ليبصروه مسخًا ثانيًا للشيطان؟

إننا في ميدان مستحر الأتون، يقاتلنا فيه عدو دنيء يتراءىٰ أنه الأخ الشفيق الحنو، الندي الرحمة، فلا أقل من أن نحاربه بما يدفع ضره وشره، ويحول بينه وبين القضاء علىٰ الرمق الذابل من عقائد المسلمين، وبين تشتيت الحشاشة الباقية من الجماعة الإسلامية.